التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

KUTUBKOM

الكتـــاب: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان
تـــــأليـف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي
عدد الصفحات: ٥٧ صفحة.
سنة الطباعـة: ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م
بــلد الطباعـة: المملكة العربية السعودية.
الطبعـــة: الأولى.
ISBN : 978-977-653-977-8

حقـوق التـرجمـة العـربيـة
والنشر والتوزيع محفوظة

لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها، أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية، أو من خلال التصوير أو التسجيل، أو بأية وسيلة أخرى.
إنَّ المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقةٍ صحيحة من الناشر هو عمل غير قانوني.
رجاءً شراء النسخة الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قَرْصَنة المواد المحمية بموجَب حقوق النشر والتأليف، أو التشجيع على ذلك، نقدِّر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين
يتحمل قارئ هذا الكتاب المسؤولية عن استخدام المعلومات الواردة به، ولا يتحمَّل أيٌّ من المؤلف والناشر أية مسؤولية بالنيابة عن القارئ فيما يخص هذا الكتاب، وعلى الرَّغم من بذل كل جهدٍ ممكن للتحقق من المعلومات الواردة به؛ فإن المؤلف والناشر لا يقدِّمان أية ضمانات على خلوِّه من الأخطاء أو الغموض أو النقص.
وننصح جميع القراء بالاستعانة بمحامين ومحاسبين أَكْفَاء لمتابعة القوانين والتنظيمات التي قد تنطبق على حالاتهما الخاصة.

لطلبات الشراء البريدية الرجاء الاتصال على:
٠٠٢٠١٠٠٠٧٥٤٠٦٦
info@kutubkom.com

التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

كتبكم
KUTUBKOM

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

مقدمة المؤلف ٧
الفصل الأول: في حد الإيمان وتفسيره ٩
فصل ٢٣
الفصل الثاني: في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان..... ٢٧
فصل ٣٩
الفصل الثالث:في فوائد الإيمان وثمراته ٤١

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذَّاها بالعلوم النافعة والمعارف الصادقة واللَّهَج بذكره آناء الليل والنهار، وجعلها تؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الرسول المصطفىٰ المختار، اللهم صلِّ وسلم علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي علىٰ مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين، مستمِدًّا ذلك من كتاب الله الكريم، والكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقًا لا مزيد عليه، ومن سنة نبيه محمد ﷺ التي توافِق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيرًا من مطلقاته، مبتدئًا بتفسيره، مثنِّيًا بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد، مثلِّثًا بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

فمثل الله كلمة الإيمان -التي هي أطيب الكلمات- بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة؛ أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال كل وقت وكل حين تغل علىٰ أهلها وعلىٰ غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتًا عظيمًا، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها، فعلىٰ العبد الموفق أن يسعىٰ لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأوصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بها علمًا وعملًا؛ فإن نصيبه من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة -بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

الفصل الأول:
في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها؛ فإن الحكم علىٰ الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم علىٰ أمر من الأمور قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورًا يميزه عن غيره- أخطأ خطأ فاحشًا.

أما حد الإيمان وتفسيره؛ فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهرًا وباطنًا؛ فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

وهو قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله.

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالىٰ من الأسماء الحسنىٰ، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة -وهو التأله والتعبد لله ظاهرًا وباطنًا- من أصول الإيمان

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان.

كذلك الإيمان بجميع الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن من أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفرد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة، كل هذا من أصول الإيمان.

ولهذا رتب الله علىٰ الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة، ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا؛ من شموله للعقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ لأنه متىٰ فات شيء من ذلك حصل من النقص وفوات الثواب وحصول العقاب بحسبه.

بل أخبر الله تعالىٰ أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلىٰ المنازل في الآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، والصديقون هم أعلىٰ الخلق درجة بعد درجة الأنبياء في الدنيا وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية أن من حقق الإيمان به وبرسله نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في «الصحيحين»؛ عنه ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة؛ كما تراءون الكوكب

الشرقي أو الغربي في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم»؛ فقالوا: يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلىٰ -والذي نفسي بيده- رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين في ظاهرهم، وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله، فقيامهم بهذه الأمور به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه من الانقياد والاستسلام، وأثنىٰ علىٰ من قام به، فقال -في أعظم آيات الإيمان-: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة، والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده -بقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾.

كما أثنىٰ علىٰ المؤمنين في آخر السورة بالقيام بذلك فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فأخبر أن الرسول ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء، بل آمنوا بهم جميعًا، وبما أوتوه من عند الله، وأنهم التزموا طاعة الله فقالوا: سمعنا وأطعنا، وطلبوا من ربهم أن يحقق لهم ذلك، وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلىٰ الله؛ يجازيهم بما قاموا به

من حقوق الإيمان وما ضيعوه منها، كما قال تعالىٰ عن أتباع الأنبياء عيسىٰ وغيره أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به قولا، وعملا، واعتقادا.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، فإنه وصفهم بالإيمان به إيمانا ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه -مع ثبوت الإيمان في قلوبهم- يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله، وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون علىٰ الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه، وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها؛ يقيمونها ظاهرا وباطنا، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة، ومن كان علىٰ هذا الوصف، فلم يبق من الخير مطلبا، ولا من الشر مهربا؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: ٤]، الذين يستحقون هذا الوصف علىٰ الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهرا وباطنا. ثم ذكر ثوابهم الجزيل؛ المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

ففسر الله الإيمان -في هذه الآيات- بجميع هذه الخصال؛ فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلىٰ آخر هذه الآيات المذكورة؛ فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقا. ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات.

وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلىٰ الجنات، كما أنهم قاموا بأعلىٰ الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة.

ويترتب علىٰ ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة؛ بحسب تفاوت هذه الأوصاف، ولهذا كانوا ثلاث درجات:

سابقون مقربون؛ وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات.

ومقتصدون، وهم الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات.

وظالمون لأنفسهم، وهم الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات؛ كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يعطف الله على الإيمان الأعمال الصالحة، أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف؛ لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما في القلب، فكم في القرآن من قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، ثم يذكر خبرا عنهم. والأعمال الصالحات من الإيمان، ومن لوازم الإيمان، وهي التي يتحقق بها الإيمان؛ فمن ادعى أنه مؤمن، وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات -فليس بصادق في إيمانه.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله؛ ومن الكفر والفسوق والعصيان؛ ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، كما وصف الله بذلك خيار خلقه بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات: ٧-٨].

فهذه أكبر المنن؛ أن يحبب الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام؛ ويبغض إليه أصناف المحرمات، والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به؛ كما ثبت في الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه كما يكره أن يقذف في النار».

فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله ورسوله مقدمة علىٰ جميع المحاب، وذكر تفريغها؛ بأن يحب الله، ويبغض لله؛ فيحب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، بقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة؛ فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعا؛ فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره، واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته علىٰ كل قوة، وعلىٰ إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك، فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام؛ فهو علىٰ نور ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلىٰ هذه المرتبة العالية، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف:١٩].

وكذلك في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وهـذا صريـح أن الإيمـان يشـمل أقـوال اللسـان، وأعمـال الجـوارح، والاعتقـادات، والأخـلاق، والقيـام بحـق الله، والإحسـان إلـىٰ خلقـه؛ فجمـع في هـذا الحديـث بيـن أعـلاه وأصلـه وقاعدتـه؛ وهـو قـول: (لا إلـه إلا الله)؛ اعتقـادًا، وتألهًـا، وإخلاصًـا لله، وبيـن أدنـاه؛ وهـو إماطـة العظـم والشـوكة وكل مـا يـؤذي عـن الطريـق، فكيـف بمـا فـوق ذلـك مـن الإحسـان؟! وذكـر الحيـاء -والله أعلـم- لأن الحيـاء بـه حيـاة الإيمـان، وبـه يـدع العبـد كل فعـل قبيـح، كمـا بـه يتحقـق كل خلـق حسـن. وهـذه الشـعب المذكـورة في هـذا الحديـث هـي جميـع شـرائع الديـن الظاهـرة والباطنـة.

وهـذا أيضًـا صريـح في أن الإيمـان يزيـد وينقـص بحسـب زيـادة هـذه الشـرائع والشـعب، واتصـاف العبـد بهـا أو عدمـه، ومـن المعلـوم أن النـاس يتفاوتـون فيهـا تفاوتًـا كثيـرًا؛ فمـن زعـم أن الإيمـان لا يزيـد ولا ينقـص فقـد خالـف الحـس مـع مخالفتـه لنصـوص الشـارع؛ كمـا تـرىٰ.

وقـد ذكـر النبـي ﷺ الإسـلام والإيمـان في حديـث جبريـل المشـهور، حيـث سـأله جبريـل بحضـرة الصحابـة عـن الإيمـان، فقـال: «أن تؤمـن بـالله وملائكتـه، وكتبـه ورسـله، واليـوم الآخـر والقـدر».

وفسـر الإسـلام بالشـرائع الخمـس الظاهـرة؛ لأنـه -كمـا تقـدم- إذا قـرن بالإيمـان غيـره، فسـر الإيمـان بمـا في القلـب مـن العقائـد الدينيـة؛ والإسـلام أو الأعمـال الصالحـة بالشـرائع الظاهـرة، وأمـا عنـد الإطـلاق -إذا أطلـق الإيمـان- فقـد تقـدم أنـه يشـمل ذلـك أجمـع.

وفي «الصحيحيـن» مـن حديـث أنـس رضـي الله عنـه أن النبـي ﷺ قـال: «لا يؤمـن أحدكـم حتىٰ أكـون أحـب إليـه مـن والـده وولـده والنـاس أجمعيـن».

فأخبر ﷺ أنه لا يتم إيمان عبد حتىٰ يقدم محبه علىٰ محبة أحب الخلق إليه، وعلامة ذلك إذا تعارضت المحبتان؛ فإن قدم ما يحبه الرسول كان صادق الإيمان، وإلا فهو ناقص الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

فأقسم تعالىٰ أنهم لا يؤمنون حتىٰ يحكموا رسوله، ولا يبقىٰ في قلوبهم حرج وضيق من حكمه، وينقادوا له انقيادًا، وينشرحوا لحكمه، وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية والأحكام الجزئية.

وفي «الصحيحين» أيضًا عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة؛ فإنه من الإيمان، ومن لم يقم بذلك، ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

وفي «صحيح مسلم» من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا».

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره، وأقضيته عليه، و[أن] يرضىٰ بالإسلام دينا، ويفرح به، ويحمد الله علىٰ هذه النعمة التي هي أكبر المنن؛ حيث رضي الله له الإسلام، ووفقه له، واصطفاه له، ويرضىٰ بمحمد ﷺ نبيًّا؛ إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، واتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فكيف لا يرضىٰ المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي أقسم الله أنه لعلىٰ خلق عظيم.

وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه، وهذا علامة محبة الله، وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم».

فبين ﷺ -بهذه الوصية الجامعة- أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهرا وباطنا، ثم استقام عليه قولا وعملا فعلا وتركا: فقد كمل أمره، واستقام علىٰ الصراط المستقيم، ورُجِي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي حديث ابن عباس المتفق عليه؛ وفي وفد عبد القيس، حين وفدوا علىٰ النبي ﷺ حيث قالوا: مرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة؛ وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع؛ أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «أتدرون ما الإيمان بالله

وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»، ونهاهم عن أربع: «عن الحنتم، والدباء، والنقير، والمزفت»، وقال: «احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم».

فهذا أيضًا صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان؛ مثل الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم. وكل هذا يفسر لنا الإيمان تفسيرا يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية فيدخل فيه الأعمال البدنية، فكل ما قرب إلىٰ الله من قول وعمل واعتقاد فإنه من الإيمان.

وفي «سنن أبي داود» عن أبي أمامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان».

فالحب والبغض في القلب والباطن، والعطاء والمنع في الظاهر، واشترط فيها كلها: الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال، ويحب من يحبه من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه من كفر وفسوق وعصيان، ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

والعطاء: يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد؛ لا يختص بالعطاء المالي؛ بل هو جزء من العطاء.

وكذلك مقابله: المنع.

وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «المؤمن: من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم»: يدل علىٰ أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه علىٰ رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة؛ حتىٰ يطمئن إليه الناس، ويأمنوه علىٰ أنفس الأشياء عندهم، وهي: الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنىٰ الإيمان وحقيقته، وأنه كما قال الحسن وغيره: «ليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال».

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. فالعبد إذا أصابته المصيبة فآمن أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده -هدىٰ الله قلبه هداية خاصة للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، فحذف المتعلق ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شيء، وذلك بسبب إيمانهم، فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرىٰ، والله الموفق.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

كثير من المفسرين فسروا الإيمان هنا بالصلاة إلىٰ القبلة التي كانوا عليها -بيت المقدس- قبل النسخ حيث مات أناس من

المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلىٰ الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم، فأنزل الله هذه الآية، وذلك أن صلاتهم إلىٰ بيت المقدس في ذلك الوقت، التزام منهم لطاعة الله ورسوله، وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرىٰ؛ وهي [أن] الله لا يضيع إيمان المؤمنين؛ قل ذلك الإيمان أو كثر؛ كما ورد في الصحيح: «إن الله يُخرِج من النار من في قلبه أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان».

وبشارة لكل من عمل عملًا قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطئ، أو نسخ ذلك العمل؛ فإنه إنما عمل ذلك العمل إيمانًا بالله، وقصدًا لطاعته، ولكنه تأول تأويلًا أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل؛ فخطؤه معفوٌّ عنه، وأجر القصد والتوجه إلىٰ الله وإلىٰ طاعته لا يضيعه الله.

ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله علىٰ لسان نبيه: (قد فعلت).

وفي الحديث الصحيح: «إذا اجتهد الحاكم فحكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد» وخطؤه مغفور له.

وكذلك: من نوىٰ عملًا صالحًا، وحرص علىٰ فعله، ومنعه مانع؛ من مرض، أو سفر، أو عجز، أو غيرها، كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعًا: «من مرض أو سافر؛ كُتِب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا»، ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.

فصل

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنة معنىٰ الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام وأصول الإيمان وحقائق الإحسان، وتوابع ذلك من أمور الدين، بل هو اسم للدين كله -علم أنه يزيد وينقص، ويقوىٰ ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه؛ لا شرعًا، ولا حسًّا، ولا واقعًا.

وذلك أن نصوص الكتاب والسنة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤] وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس الواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة، متفاوتون تفاوتًا عظيمًا في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك.

فالمؤمنون الكُمَّل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله، ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم، وأخلاقهم، فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة، وعند كثير منهم من المعارضات والشبهات، والشهوات، ما يضعف الإيمان وينقصه درجات كثيرة.

بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتًا كثيرًا في نفس العلم الذي عرفوه من علوم الإيمان:

أحدهما: علمه فيه قوي صحيح، لا ريب فيه، ولا شبهة.

والآخر: علمه فيه ضعيف، وعنده معارضات كثيرة تضعفه أيضًا.

وكذلك أخلاق الإيمان: يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا؛ صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها.

وكذلك في العبادات الظاهرة: كالصلاة، يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، والآخر يصليها بظاهره، وباطنه مشغول بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين، ومرتبة الظالمين، وكل واحدة من هذه المراتب -أيضا- أهلها متفاوتون تفاوتًا كثيرًا.

والعبد المؤمن -في نفسه- له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة وقوية، وأحيانا بالعكس.

وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه، وكان خيار الأمة والمعتنون بالإيمان منهم يتعاهدون إيمانهم كل وقت؛ يجتهدون

في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له، ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه؛ من علومه وأعماله وأحواله؛ فنسأل الله أن يزيدنا علمًا ويقينًا، وطمأنينة به وبذكره، وإيمانًا صادقًا.

وخيار الخلق -أيضًا- يطلبون ويتنافسون في الوصول إلىٰ عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلىٰ حق اليقين؛ كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح بن مريم، حين طلبوا نزول المائدة ووعظهم عيسىٰ عن هذا المطلب ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٣]؛ فذكروا حاجتهم الدنيوية وحاجتهم العلمية الإيمانية إلىٰ ذلك.

الفصل الثاني:
في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسَّة إلىٰ معرفته والعناية به، معرفة واتصافًا، وذلك أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترفيع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل، ولا يحصل، ولا يقوىٰ، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد، وإلىٰ ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالىٰ قد جعل لكل مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقوِّيه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران؛ **مجمل ومفصل**:

أما **المجمل** فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والتأمل لآياته الكونية علىٰ اختلاف أنواعها، والحرص علىٰ معرفة الحق الذي خُلِق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلىٰ هذا الأصل العظيم.

وأما **التفصيل**: فالإيمان يحصل ويقوىٰ بأمور كثيرة:

١- منها -بل أعظمها- معرفة أسماء الله الحسنىٰ الواردة في الكتاب والسنة، والحرص علىٰ فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا؛ مئة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة»؛ أي: من حفظها، وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها، دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم: أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنىٰ هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه، وقوي يقينه.

فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول؛ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة في يقينه، وطمأنينة في أحواله.

٢- ومنها: تدبر القرآن علىٰ وجه العموم؛ فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه ما يزداد به إيمانا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

وكذلك: إذا نظر إلىٰ انتظامه وإحكامه؛ وأنه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف، تيقن أنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وأنه لو كان من عند غير الله، لوُجِد

فيه من التناقض والاختلاف أمور كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة؛ فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما دلت عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة -يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقصاده وأسراره؟! ولهذا كان المؤمن الكُمَّل يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

٣- وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله، كلها من محصلات الإيمان ومقوياته؛ فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل في علمه وإيمانه إلىٰ مرتبة اليقين.

فقد وصف الله الراسخين في العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين، الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم علىٰ غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من الآيات إلىٰ المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلها من عند الله، وما منه وما تكلم به وحكم به كله حق وصدق.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وبعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح: استشهد بهم في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٦].

وأخبر تعالىٰ في عدة آيات أن القرآن آيات للمؤمنين، وللموقنين؛ لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره من العلم واليقين والإيمان بحسب ما فتح الله عليهم منه؛ فلا يزالون يزدادون علمًا وإيمانًا ويقينًا.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل الجالبة للإيمان والمقوية له، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

فاستخراج بركة القرآن -التي من أهمها حصول الإيمان- وطريقه تدبر آياته وتأملها.

كما ذكر أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي علىٰ الدين من اعتدائه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

أي: فلو تدبروه حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه من الكفر والتكذيب، وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.

وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]؛ أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

٤- ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه: معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة.

فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾ [المؤمنون: ٦٩]؛ أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلىٰ الإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالىٰ -حاثًّا لهم علىٰ تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان- ﴿۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالىٰ بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ١-٤].

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة، فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾؛ وهو هذا الرسول الكريم، ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾، بقوله، وخلقه، وعمله، ودينه، وجميع أحواله؛ ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]؛ أي: إيمانًا لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلىٰ الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله، توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات، وينيلهم المطالب العاليات، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ

ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف؛ الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق، مجرد ما يراه ويسمع كلامه، يبادر إلىٰ الإيمان، ولا يرتاب في رسالته؛ بل كثير منهم، مجرد ما يرىٰ وجهه الكريم، يعرف أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: لم بادرت إلىٰ الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟ فقال: «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته أمر به»؛ فاستدل هذا العاقل الموفق بحسن شريعته ﷺ، موافقتها للعقول الصحيحة علىٰ رسالته؛ فبادر إلىٰ الإيمان.

ولهذا استدل ملك الروم هرقل -لما وصف له ما جاء به الرسول وما كان يأمر به، وما ينهىٰ عنه- استدل بذلك أنه من أعظم الرسل؛ واعترف بذلك اعترافًا جليًّا، ولكن منعته الرياسة وخشية زوال ملكه من اتباعه، كما منعت كثيرًا ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقًّا، وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرياسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة، حتىٰ يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة عاجلًا وآجلًا.

ولهذا السبب الأعظم كان المعتنون بالقرآن حفظًا ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة أعظم إيمانًا ويقينًا من غيرهم، وأحسن عملًا في الغالب.

٥- ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التفكر في الكون؛ في خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال علىٰ قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال علىٰ سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصىٰ، الدالة علىٰ سعة رحمة الله، وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلىٰ تعظيم مبدعها وبارئها، وشكره، واللهج بذكره وإخلاص الدين له؛ وهذا هو روح الإيمان وسره.

وكذلك النظر إلىٰ فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلىٰ ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عن طرفة عين خصوصًا ما تشاهده في نفسك؛ من أدلة الافتقار، وقوة الاضطرار.

وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلىٰ الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل علىٰ ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوِّي التعبد؛ فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها ملخوق طرفة عين؛ فإن هذا يدعو إلىٰ الإيمان.

ولهذا دعا الله الرسل والمؤمنين إلىٰ شكره؛ فقال: ﴿يأيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنت إياه تعبدون﴾ [البقرة: ١٧٢]، فالإيمان يدعو إلىٰ الشكر، والشكر ينمو به الإيمان، فكل منها ملازم وملزوم للآخر.

٦- ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة.

فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكرًا لله، قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلىٰ كثرة الذكر؛ فمن أحب الله أكثر من ذكره. ومحبة الله هي الإيمان، بل هي روحه.

٧- ومن الأسباب الجالبة للإيمان: معرفة محاسن الدين.

فإن الدين الإسلامي كله محاسن: عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها، وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه، كما امتن الله به علىٰ خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء، وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدعاء المأثور: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

٨- ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان، في عبادة الله والإحسان إلىٰ خلقه؛ فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فإن لم يقوَ علىٰ هذا، استحضر أن الله يشاهده ويراه، فيجتهد في في إكمال العمل وإتقانه، ولا يزال العبد يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالي، حتىٰ يقوىٰ إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلىٰ حق اليقين -الذي هو أعلىٰ مراتب اليقين- فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات، وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلىٰ الخلق بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع -هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان، والجزاء من جنس العمل؛ فكما أحسن إلىٰ عباد الله، وأوصل إليهم من بره، ما يقدر عليه: أحسن الله إليها أنواعًا من الإحسان، ومن أفضلها: أن يقوِّي إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلىٰ ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله ولعباده؛ فإن الدين النصيحة، ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق، فقد تحقق نصحه.

ولذلك قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، متفق عليه.

٩- ومنها قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، إلىٰ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ الآية [المؤمنون: ١-١٠].

فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه علىٰ استحضار ما يقوله ويفعله؛ من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود: من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وتقدم أن الله سمة الصلاة إيمانا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي علىٰ ذكر الله، الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والـزكاة كذلـك تنمـي الإيمـان وتزيـده، وهـي -فرضهـا ونفلهـا كمـا قـال النبـي ﷺ- برهـان علىٰ إيمـان صاحبهـا؛ فهـي دليـل الإيمـان، وتغذِّيه وتنمِّيـه.

والإعـراض عـن اللغـو -الـذي هـو كل كلام لا خيـر فيـه، وكل فعـل لا خيـر فيـه، بـل يقولـون الخيـر ويفعلونـه، ويتركـون الشـر قـولًا وفعـلًا- لا شـك أنـه مـن الإيمـان، ويـزداد بـه الإيمـان، ويثمـر الإيمـان.

ولهـذا كان الصحابـة رضـي الله عنهـم ومـن بعدهـم، إذا وجـدوا غفلـة أو تشـعَّث إيمانُهـم، يقـول بعضهـم لبعـض: «اجلـس بنـا نؤمـن سـاعة» فيذكـرون الله، ويذكـرون نعمـه الدينيـة والدنيويـة؛ فيتجـدد بذلـك إيمانهـم.

وكذلـك العفـة عـن الفواحـش -خصوصًـا فاحشـة الزنـا- لا ريـب أن هـذا مـن أكـبر علامـات الإيمـان ومنمياتـه؛ فالمؤمـن لخوفـه مقامـه بيـن يـدي ربـه نهـىٰ النفـس عـن الهـوىٰ إجابـة لداعـي الإيمـان، وتغذيـة لمـا معـه مـن الإيمـان.

ورعايـة الأمانـات والعهـود وحفظهـا مـن علائـم الإيمـان، وفي الحديـث: «لا إيمـان لمـن لا أمانـة لـه».

وإذا أردت أن تعـرف إيمـان العبـد ودينـه فانظـر حالـه، هـل يرعـىٰ الأمانـات كلهـا، ماليـة أو قوليـة أو أمانـات الحقـوق؟ وهـل يرعـىٰ الحقـوق والعهـود والعقـود التـي بينـه وبيـن الله، والتـي بينـه وبيـن العبـاد؟

فـإذا كان كذلـك، فهـو صاحـب ديـن وإيمـان، وإن لـم يكـن كذلـك نقـص مـن دينـه وإيمانـه بمقـدار مـا انتقـص مـن ذلـك.

وختمهـا بالمحافظـة علـىٰ الصلـوات، علـىٰ حدودهـا، وحقوقهـا، وأوقاتهـا؛ لأن المحافظـة علـىٰ ذلـك بمنزلـة المـاء الـذي يجـري علـىٰ بسـتان الإيمـان، فيسـقيه وينميـه ويـؤتي أكلـه كل حيـن.

وشجرة الإيمان -كما تقدم- محتاجة إلىٰ تعاهدها كل وقت بالسقي، وهو المحافظة علىٰ أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات، وإلىٰ إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة، وهو العفة عن المحرمات قولًا وفعلًا، فمتىٰ تمت هذه الأمور نما هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

١٠- ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلىٰ أصل الدين، والدعوة إلىٰ التزام شرائعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره، كما أقسم تعالىٰ بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، والدين الحق، وبالصبر علىٰ ذلك كله، وبهما يكمل غيره.

وذلك أن نفس الدعوة إلىٰ الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعىٰ بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين علىٰ تحقيقها، ويأتي الأمر من أبوابها، ويتوسل إلىٰ الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضًا: فإن الجزاء من جنس العمل؛ فكلما سعىٰ إلىٰ تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر علىٰ ذلك، لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيد بنور منه، وروح وقوة إيمان، وقوة توكل؛ فإن الإيمان وقوة التوكل علىٰ الله، يحصل به النصر علىٰ الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].

وأيضًا: فإنه متصد لنصر الحق؛ ومن تصدىٰ لشيء فلا بد أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه.

فصل

١١- ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس علىٰ مقاومات ما ينافي الإيمان؛ من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له؛ فلا بد -مع ذلك- من دفع الموانع والعوائق، وهي: الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان؛ فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته والسعي فيه، لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها؛ من رغبة النفس في الشر، ومقاومة النفس الأمَّارة بالسوء.

فمتىٰ حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات، تم إيمانه، وقوي يقينه، وصار مثل بستان إيمانه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ومتىٰ كان الأمر بالعكس؛ بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما، انطبق عليه هذا المثل؛ وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ

ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعىٰ في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علمًا وعملًا وحالًا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصَّر فيه من الأول وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]؛ أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم في طائف الشيطان، الذي هو أعدىٰ الأعداء للإنسان؛ فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فعادوا إلىٰ حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيرًا ذليلًا، وإخوان الشيطان ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٢]: الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم، حتىٰ يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا؛ وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان؛ واجعلنا من الراشدين؛ بفضلك ومنتك؛ إنك أنت العليم الحكيم.

الفصل الثالث:
في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن، والراحة والحياة الطيبة، [في] الدنيا والآخرة، وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجنىٰ اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر. أمور لا تحصىٰ، وفوائد لا تستقصىٰ.

ومجملها: أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة؛ وذلك أن هذه الجشرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها: عادت علىٰ صاحبها وعلىٰ غيره، بكل خير عاجل وآجل:

١- فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾، ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي: يخرجهم من ظلمات الفكر إلىٰ نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلىٰ نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلىٰ نور اليقظة والذكر.

وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة، إلىٰ ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوىٰ؛ فإن التقوىٰ من تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

٢- ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة؛ بإيمانهم الذي كمَّلوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا علىٰ أجل الوسائل، وأفضل الغايات، وذلك فضل الله.

٣- ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار؛ والإيمان -ولو قليلًا- يمنع من الخلود فيها.

فإن من آمن إيمانًا أدىٰ به الواجبات وترك المحرمات فإنه لا يدخل النار، كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في هذا الأصل، كما تواتر عنه ﷺ أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان، ولو يسيرًا.

٤- ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد، كما قال تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]؛ أي:

يدافع عنهم كل مكروه؛ يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

٥- ولما ذكر تعالىٰ ما وقع فيه يونس -عليه الصلاة والسلام- وأنه نادىٰ ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]: إذا وقعوا في الشدائد؛ كما أنجينا يونس. قال النبي ﷺ: (دعوة أخي يونس، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: ٢]؛ أي: من كل ما ضاق علىٰ الناس، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤].

فالمؤمن المتقي ييسره الله أموره وييسره لليسرىٰ، ويجنبه العسرىٰ، ويسهل عليه الصعاب، ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا؛ ويرزقه من حيث لا يحتسب، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة.

٦- ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح -الذي هو فرعه- يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيبة؛ فإن أصل الحياة الطيبة: راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

٧- ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والإخلاص؛ ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل، مثل قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]؛ أي: لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩].

والسعي للآخرة هو: العمل بكل ما يقرب إليها ويدني منها من الأعمال التي شرعها الله علىٰ لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست علىٰ الإيمان وانبنت عليه، كان السعي مشكورًا مقبولًا مضاعَفًا، لا يضيع منه مثال ذرة.

وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبول، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وذلك لأنها أسست علىٰ غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه: الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]؛ فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته-حبطت أعمالهم.

وقال تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه، والمُنقِصة له- تجب ما قبلها.

٨- ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلىٰ الصراط المستقيم، وبهديه في الصراط المستقيم يهديه إلىٰ علم الحق، وإلىٰ العمل به، وإلىٰ تلقي المحاب والسرور بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩].

وقال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]، قال بعض السلف: «هم الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضىٰ ويسلم».

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره، التي كل أحد عرضة لها في كل وقت. ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها، وذلك لقوة إيمانه، وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله، فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة -وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له- تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما. وهذا الفرق راجع إلىٰ الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد المحاب، فإذا فقد المؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه؛ من أهل

وولد ومال وصديق وشبهها، تسلىٰ بحلاوة إيمانه. والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب -في الحقيقة- معدود من المصائب، ولولا أن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم، بحيث قال لإخوته -لما طلبوا منه بعض يوم، أن يذهب معهم ليرتع ويلعب-: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٣]، فأخبر أن المانع له من إرساله، أنه لا يصبر علىٰ فراقه ولا ساعة من نهار، ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم، فأرسله، ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه -هل يدخل في الذهن أنه يبقىٰ هذه المدة الطويلة علىٰ الوجود؟! بل يغلب علىٰ الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت، ولكن قوة الإيمان وقوة الرجاء بالله أوجب له أن يتماسك كل هذه المدة، حتىٰ جاء الله بالفرج الذي وُعِد به المؤمنون.

وكذلك أم موسىٰ؛ حين ذهب اليم بموسىٰ، وأصبح فؤادها فارغا من كل شيء إلا من الحزن علىٰ موسىٰ، لولا أن ربط الله علىٰ قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها، ولكن هو الإيمان المثبت عند الشدائد، المسلي عند المصائب، المقوي إذا وهنت القوىٰ، المعزي إذا عز العزا.

وقال النبي ﷺ -في وصيته العظيمة في حديث ابن عباس الصحيح الذي في السنن-: «تعرف إلىٰ الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»؛ أي: تعرف إلىٰ الله بالإيمان وأعمال الإيمان وأنت صحيح شحيح غني، يعرفك الله في الشدة، يقويك علىٰ مباشرتها ويعينك علىٰ معالجتها. وأعظم شدة تنزل بالمؤمن شدة الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرىٰ لكل مؤمن قد تعرف إلىٰ ربه في رخائه، أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وشعف القوىٰ، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير، فإن الله يعينه بتأييده، وروحه ورحمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٨- ومن ثمرات الإيمان ولوازنه-من الأعمال الصالحة- ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي: بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحب الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح، والفوائد الكثير من محبة المؤمنين؛ من الثناء والدعاء له حيًّا وميتًا، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

وهذه أيضًا من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فبالصبر واليقين -اللذين هما رأس مال الإيمان وكماله- نالوا الإمامة في الدين.

٩- ومنها قوله تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١]: فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة، فهم أعلىٰ الخلق درجة عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة.

وإنما نالوا هذه الرفعة بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان.

١٠- ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه:

كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣، والتوبة: ١١٢، ويونس: ٨٧، والأحزاب: ٤٧، والصف: ١٣]؛ فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم من الأمن المطلق؛ في مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولهم الأمن المقيد: في مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٨].

فنفىٰ عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضىٰ عليهم؛ وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة؛ أمِنَ من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور، وله البشارة التامة بكل خير؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

ويوضح هذه البشارة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

فرتب علىٰ الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الحديد: ١٢]، فالمؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا أطفئت الأنوار يوم القيامة، مشىٰ بنوره علىٰ الصراط حتىٰ يجوز به إلىٰ دار الكرامة والنعيم. وكذلك رتب المغفرة علىٰ الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

١١- ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح، الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب، والهدي الذي هو أشرف الوسائل.

كما قال تعالىٰ بعد ذكره المؤمنين بما أنزل علىٰ محمد ﷺ وما أنزل علىٰ من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة -اللتين هما من أعظم آثار الإيمان- قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٥].

فهذا هو الهدىٰ التام والفلاح الكامل.

فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ والفلاح -اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما- إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، فالهدىٰ أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

١٢- ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات:

قال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٧].

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه علىٰ التزام الحق واتباعه علمًا وعملًا، وكذلك مع الآلة العظيمة والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة علىٰ الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضًا: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك، انتفع بالآيات.

ومن لم يكن كذلك، فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له، ولهذا يذكر الله -في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ، وقبول الحق الذي جاء به- السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو الكفر الذي في قلوبهم، يعني: لأن الحق واضح، وآياته بينة واضحة، والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أي: فلا يستغربوا هذه الحالة؛ فإنها لم تزل دأب كل كافر.

١٣- ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه علىٰ الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته:

كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذىٰ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه».

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلىٰ من ذلك، وبذلك تتم عليه النعمة.

ويجتمع له عند الضراء ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي [هي] أعلىٰ من ذلك، ونعمة سهولة الضراء التي عليه؛ لأنه متىٰ عرف حصول الأجر والثواب والتمرن علىٰ الصبر هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

١٤- ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥]، أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء؛ فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

وهذا ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أني النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل: آمن بالله، ولينته، وليتعوذ بالله من الشيطان».

فذكر ﷺ هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك؛ وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها

وشبه بها ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين.

وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة؛ أعظمها: العلم أنه مناف للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

١٥- ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم: من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها:

فعند المحاب والسرور يلجؤون إلىٰ الإيمان: فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجؤون إلىٰ الإيمان من جهات عديدة: يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب علىٰ ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرجوع إلىٰ الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجؤون إلىٰ الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيمانا وثباتا، وقوة وشجاعة، ويضمحل الخوف الذي أصابهم، كما قال تعالىٰ عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل علىٰ الله، والثقة بوعده.

ويلجؤون إلىٰ الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء، بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره؛

فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب؛ الأمن وأسبابه، ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجؤون إلىٰ الإيمان عند الطاعة، والتوفيق للأعمال الصالحة؛ فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون علىٰ تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتمم لها منها ما انتقصوه منها.

ويلجؤون إلىٰ الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلىٰ التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال ﷺ: (مثل المؤمن كالفرس المربوط في آخيته: يجول ما يجول، ثم يعود إلىٰ آخيته) كذلك المؤمن: يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ علىٰ بعض الآثام، ثم يعود سريعًا إلىٰ الإيمان الذي بنىٰ عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلىٰ الإيمان، ومفزعهم إلىٰ تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومنه.

١٦- ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني

حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن...» الحديث.

فأخبر أن الإيمان إذا صحبه عند وجود أسباب هذه الفواحش، فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله -الذي هو من أعظم شعب الإيمان بلا شك- يمنع من مواقعة هذه الفواحش.

ومن وقعت منه، فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه الأمور -التي هي من مكملات الإيمان- لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

١٧-ومنها: أنه ثبت عنه ﷺ في «الصحيحين» من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها».

وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة؛ فإن الناس أربعة أقسام:

خير في نفسه، متعدٍّ خيره إلىٰ غيره، وهو خير الأقسام، فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين؛ فهو نافع لنفسه، متعدٍّ نفعه إلىٰ غيره، مبارك أينما كان، كما قال الله تعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١].

وطيب في نفسه، صاحب خير، وهو المؤمن الذي ليس عنده من العلم ما يعود به علىٰ غيره.

فهذا القسمان هم خيار الخليقة، والخير الذي فيهم عائد إلىٰ ما معهم من الإيمان القاصر والمتعدي نفعه إلىٰ الغير بحسب أحوال المؤمنين.

ومن هو عادم للخير، ولكنه لا يتعدىٰ ضرره علىٰ غيره.

ومن صاحب شر علىٰ نفسه، وعلىٰ غيره، فهذا شر الأقسام، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

فعاد الخير كله إلىٰ الإيمان وتوابعه، وعاد الشر إلىٰ فقد الإيمان، والاتصاف بضده، والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنىٰ، قوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

فقسم ﷺ المؤمنين إلىٰ قسمين: قسم قوي في عمله وقوة إيمانه في نفعه لغيره، وقسم ضعيف في هذه الأشياء.

ومع ذلك، ففي كل من القسمين خير؛ لأن الإيمان وآثاره كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

ومثل هذا قوله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم»، ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان، فأما أن يكون الشخص أحواله كلها شر وضرر علىٰ نفسه وعلىٰ المجتمع من جميع الوجوه، وإما أن يكون

فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر، وغلب شره خيره، والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد صارت شرًّا؛ لأن الخير الذي معه يقابله شر نظره؛ فيتساقطان، ويبقىٰ الشر -الذي لا مقابل له من الخير- يعمل عمله. ومن تأمل الواقع في الخلق رأىٰ الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

فتبين مما تقدم: أن هذه الشجرة المباركة -شجرة الإيمان- أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها.

وأن عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمان وعلومه ومعارفه. وساقها وأفنانها: شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر/ السمت الحسن، والهدي الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه، والنفع لعباد الله بحسب القدرة: نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال، وجميع طرق النفع. وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

وأن هذه الشجرة -في قلوب المؤمنين- متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به من هذه الصفات.

وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله.

وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة بعدما دخلوها، وتبوؤا منازلهم، معترفين بفضل ربهم العظيم: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ

هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣].

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم علىٰ الله بنعمه وفضله، حيث وصلوا إلىٰ هذه المنازل العالية، وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلىٰ ذلك بمنة الله عليهم به، وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله.

فنسأل الله تعالىٰ أن يمن علينا بالإيمان الصادق، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة؛ إنه هو الوهاب.

وصلىٰ الله علىٰ محمد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليمًا.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلىٰ الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي، غفر الله له، ولوالديه، ولجميع المسلمين.

ورقم في ٨ ذي الحجة، سنة ١٣٧٤ هـ، والحمد لله.